إضاءة

أوغست فيشر لغويّ ذهب أبعد من أقرانه

قصّة معجم مُبدَّد

تكمن أصالة المعجم الذي عمل عليه المستشرق الألماني في اعتماده على الشواهد واستخراج الدلالات من السياقات التي وردت فيها الكلمات، لا من إسقاطات المعجميين لاحقاً. غير أن مجهود عقود من عمله المضني بات ضائعاً، ما يجعل التنقيب عنه ضرورياً اليوم

نجم الدين خلف الله

عَكف المُستشرقون الأوائل على صِناعة مَعاجمَ حديثةٍ للضّاد، لتَرتيب الكلمات فيها وَفقَ المناهج العصريّة، ولم يتهيّبوا الخوض في مُعضِل موادّها ومجاهيل شواهِدها وأسرار ترتيبها، رغم وعورتها. ومن أوائل مَن خاضوا غمرة هذا الميدان الألمانيّ أوغست فيشر (1865 - 1949)، الذي صاغ باكورة قاموس تأريخيّ وتأثيليّ للضاد، بعد أن كتب مُقدِّمَة نظريّةً مُطوّلةً ومفيدة، في تتويج للمجهودات التي ابتدأها، قَبله بسنواتٍ قليلة المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (1820 - 1883) في كتاب «تكملة المعاجم العربيّة». قصّة «مُعجم فيشر» هي قصّة أكبر عمليّة هَدْر وتَبديد في تاريخ المعاجم العربيّة، ولا بدّ أن تُروى للأجيال اعتِبارًا وعجبًا: ابتدأت الحكاية سَنَة 1880 حين حَلَم دوزي، في تقديم «تكملته»، بأن يُصدرَ المختصّون معجمًا تاريخيًّا يرصد جذور الكلمات وظهور معانيها في النّصوص الأصليّة مع تتبّع تحوّلاتها عبر الزمن وفي المُدوّنات المختلفة. التقَط فيشر هذه الإشارة وناقَشها مع زملائه سَنَة 1907، إبّان «مؤتمر الفيلولوجيّين الألمان» بمدينة بازل السويسرية، ثم أعاد طرحها في السّنة التي تلتها خلال «المؤتمر الدّولي للمستشرقين» في كوبنهاغن، واستعادها ثالثةً بـ«مُؤتمر أثينا» سنة 1912، وشكّلت محاضر جلسات هذه المؤتمرات خطّة العَمل التي سار عليها من 1913 إلى 1939، حيث كان فيشر يقضي الفترات الشتويّة في القاهرة، يجمع المداخل ويرتّب المعاني ويَعضدها بالشّواهد. في المُقدّمة، تطرّق المؤلّف إلى شرعيّة الاحتجاج بالقرآن وإلى الجَدل القائم حول فصاحة الحديث النّبويّ وطُرق روايته وجمعه، منتهيًا إلى أهميّة المنظوم والمنثور من كلام العرب. وفيها استعرض انتقاداته للمعاجم العربيّة القديمة، مثل «القاموس المحيط» للفيروز آبادي و«المُحكَم» لابن سيده و«لسان العرب» لابن منظور، التي اعتبر أنّها تركّز على الفصيح المقبول ضمن نظرة معياريّة، وأنها تَفتقر إلى بروتوكول تعريفيّ واضح مُطّرد، وتَغيب عنها بعض التحديدات الضّروريّة، التي تجعل من الشرح متكاملاً مفيدًا، وقد حَصر هذه التحديدات لكلّ مُفردة وتركيب في سبع عمليات رئيسة، هي: التاريخيّة، والاشتقاقيّة، والتصريفيّة، والتعبيريّة، والنحويّة، والبيانيّة، والأسلوبيّة.

واستعان فيشر في تحديد هذه الخصائص بالمصادر العربيّة القديمة، كما استأنس بما كَتَبه أساتذتُه من المُعجميّين مثل دوزي، وفليشر، أستاذه المباشر، وتوربيكه، وغولدزيهر الذي اشتَغل على «معاني القرآن». واستمرّ العمل منتظمًا بعد أن أقرّه وتبنّاه «مجمع اللغة العربية بالقاهرة»، حتى سنة 1939، مُستعينًا بفريق وفيٍّ من المساعدين العرب والألمان، مثل جونسون بيدرسون وجان لويس أخنوخ (مصريّ من منفلوط) ومنير حمدي (من القاهرة) وآماليا روندبرخ. وفي تلك الجذاذات، كان يَقرن المفردات بشواهدها، إيمانًا منه بضرورة ربط المعاني بالتوارد الفعليّ، لا بتأويلات بَعدِيّة، فأكبّ على الأبيات الثابتة من الشّعر الجاهليّ، ولا نَنسى أنّ هذا العملَ أنجز في عزّ حملة التشكيك في هذا الشعر، التي قادها المستشرق الإنكليزي مارغوليوث (1858 - 1940)، وتبعه فيها طه حسين في كتابه عن «الشعر الجاهلي» (1926). كما استمدّها من لغة القرآن والحديث النبويّ والنثر التاريخيّ، ولا سيما ذاك الذي حبّره ابن جرير الطّبري في «تاريخه»، فضلاً عن لُغة الشّعر الأمويّ. فالمُدوّنة التي اشتغل عليها هي العربية الكلاسيكية، بالمعنى التي أطلقه ريجيس بلاشير، أيْ: العربيّة الفصحى التي امتدّت إلى حُدود القرن الثالث للهجرة، وقد تحوّلت إلى مِعيار الفصاحة. إلا أنّه رفض الاعتماد فقط على المعاجم العربيّة لأنها أقصَت الكثيرَ من المعاني والكلمات، معتبراً إياها منحرفة عن سمْتِ البلاغة، ومن هنا جاء تأكيده على استقاء المواد اللغويّة من الآثار والنّقوش والأشعار الخاملة، دون إصدار أيّ حكم قيَمي عليها. وعليه، تكمن أصالة هذا المُعجمِ في اعتماده التامّ على الشواهد واستخراج الدلالات من السياقات الفعليّة التي وردت فيها الكلمات، وليس من «الإسقاطات» البعديّة التي ألّفَها المعجميّون العرب على مرّ التاريخ، متأثّرين بمفاهيم غير معجميّة، مثل فصاحة الكَلم، مقياسًا لاعتبارها ممّا يستحقّ الجَمعَ والحفظ والاستخدام، ومثل واجب السكوت، في المقابل، على المفردات الخاطِئة والنابية والمتقادمة أو المنحدرة من اللهجات والاقتراض، وكلّها ممّا عزفت تلك المَعجمات «الرّسميّة» العاملة عن إعطائها حقّ المُواطَنة.

وتقوم منهجيّته على تقديم شروح للمعاني باللغتَيْن الفرنسيّة والإنكليزيّة. وعِلّة اعتماده هاتيْن اللغتَيْن واضحة، فقد كانت الفرنسيّة لغة المُستعمرات العَربيّة ولسان «العِلم» الذي به يتكلّم جلُّ المستشرقين، وفيه صيغت أحسن المعاجم المُزدوجة، مثل معجمَي كازيمرسكي ودوزي. وأمّا الإنكليزيّة، فمن أجل ضَمان أوسع انتشارٍ لكتابه هذا، المُوجّه إلى جمهور المثقّفين في العالَم بأسره.

وكانت نتيجة هذا العمل آلاف الجذاذات، التي لم ير النّورَ منها سوى الجزء الأول فقط، والذي لا يتضمّن، مع الأسف الشديد، سوى ستّين صفحة فحسب، انتهت إلى جذر «أبد»، وتبدّد ما سواهُ في مجاهل النسيان. وبما أنّ فيشر كان من مؤسّسي «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة، وهو الذي أقرّ هذا المشروع ووضع رهنَ إشاراته مساعدين، فقد استودع تلك الجذاذات في المجمع، لكنّها ضاعت بين المَجمع المصريّ وبين ألمانيا، ولا سيما عندما تحوّل مقرّه من شارع قصر العيني إلى شارع مراد بالجيزة، ولم تبقَ إلّا ورقات صوّرَتها «جامعة توبنغن». وهكذا تبدّدت جهودُ عقودٍ كاملة ومعلومات وثيقة، وهي من أكبر الخسائر التي منيَ بها تاريخ المعجمات عندنا. لكن، لا يأسَ مع الحياة؛ أسمح لنفسي بحُلم لذيذ: أن يسمّي «معجم الدوحة التاريخيّ» موظّفًا في مهمّة دقيقة لتعقّب هذه الجُذاذات وتصويرها ونقل محتوياتها، لأنّ ما فيها نَفيسٌ، وإنْ تجاوَزه الزمن، وليس هذا التعاون بعزيز بين المؤسسات الدوليّة. ونرجو ألّا يَضيع هذا الحلم سدًى في دواليب الإدارات وعبث المراسلات، إذ لا بدّ لهذا المجهود من إعادة تأهيلٍ وتنقيب، لأنه اللبنة الأولى لمُعجم الضاد التاريخيّ، وقد أُنجز بأسلوب علميّ، يعتمد نصوص اللغة وشواهدها، ثم لأنّه نتاج تضافر جهود أسهم فيها الكثير من البحّاثة العَرب المصريين المغمورين تمامًا.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

النص الكامل على الموقع الالكتروني

أوغست فيشر في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

لم تُطبع من آلاف الأوراق التي حرّرها إلّا ستّون صفحة

في التنقيب عن المعجم تكريمٌ للغويين مصريّين ساهموا فيه

حلقةٌ حول المعلّقات

منعت الحرب العالمية الثانية أوغست فيشر من زيارة مصر حتى رحيله، ما أعاق ربما العثور على ما ضاع من معجمه. إلّا أنه ظلّ، حسب ما يروي عبد الرحمن بدوي في «موسوعة المستشرقين»، يجمع مريديه من محبّي الضاد ليَتلوَ على مسامعهم المُعلّقات السبع ويَشرحها شرحَ العارف، وذلك حتى الأيام الأخيرة من حياته التي أنافت على 84 سنة قضى جلّها في خدمة العربية وتحليل أبنيتها الفرعيّة جدّاً، مثل مقالٍ كامل عن كلمة «أيْش!».

معرض

عزّة الصدّيق فنٌّ يمزج الكيمياء بالميثولوجيا

أركيولوجيا الرائحة

تضيء الفنانة السودانية، في معرضها الذي يُفتَتح الخميس المقبل في ماسا تشوستس الأميركية، القيمة العلمية والاقتصادية والجمالية للروائح على مرّ التاريخ

نيويورك ـ العربي الجديد

أُولى التفاصيل التي التقطتها الفنانة السودانية عزّة الصدّيق في طفولتها التي عاشتها في مدينة تورنتو بكندا، كانت الروائح التي لا تفارق النساء السودانيات في المهجر، المأخوذة من شجر الصندل والورد والمرّ واللبّان وغيرها من الزيوت العطرية، التي ترتبط معظمها بأساطير وموروثات تعود إلى آلاف السنين.

رائحةٌ استقرّت في أعمالها التركيبية التي تُعيد سرد الروايات التاريخية بصرياً، من خلال استخدام المعدن والخشب والبلاستيك والزجاج، كما في معرضها الجديد «قائمة المشاريع 25» الذي يُفتتح الخميس، الثلاثين من الشهر الجاري، في «مركز الفنون البصرية» التابع لـ«معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا» في الولايات المتحدة، ويتواصل حتى الرابع من أيلول/ سبتمبر المقبل.

تعرض الصدّيق مزهريات مصنوعة من الصلب والفخّار وقطع زجاج تُحاكي من خلالها الأشكال القديمة التي تزيّن المعابد النوبية وتصوّر الطقوس الجنائزية، والتي تعود إلى نهايات الألف الثاني قبل الميلاد في الجنوب المصري وشمال السودان.

وتستعير الفنّانة في بناء تركيباتها نظام الريّ بالتنقيط الذي عرفته الحضارات القديمة في وادي النيل، من أجل أن يرتفع منسوب المياه التي وضعتها في خزانات معدنية تنفتح على شبكات من الأنابيب البلاستيكية، لتتساقط قطرات على أرفف وُضعت عليها مزهريات مصنوعة من الخزف، ما يؤدّي إلى تآكلها ببطء، في إشارة إلى الفناء.

وفي أعمال أُخرى، تنشر الفنانة مصابيح حرارة تنبعث منها روائح زيت خشب الصندل، الذي يُستخدم لتطهير الجثث وتجهيزها للدفن، مع مزيج من عطور أُخرى تستخدمها المرأة السودانية، في محاولة لمزج روائح الموت والعدم بروائح الحياة والخصوبة والاستمرار.

المعرض، الذي نسّقته الفنانة والقيمة سيلبي نيمرود، يضيء ثيمة أساسية تشتغل عليها الصدّيق وتتمثّل في الرائحة التي تُحيل إلى موضوعات شتّى، حيث ترتبط بالاحتفالات والمواسم الدينية منذ العصور الوثنية مروراً بالمسيحية وحتى الإسلام، إذ يُعرض مقطع فيديو يتضمّن جميع المركّبات الكيميائية التي تتكوّن منها مادّة البخور وهي تُواصل احتراقها في المكان.

كما تبحث الفنّانة في التاريخ الاقتصادي وراء تلك الرائحة في السودان منذ آلاف السنين، حيث كانت المراكب التجارية تنقل الزيوت العطرية، مثل العنبر والعود، إلى مصر الفرعونية التي كانت تضعها في المعابد، كما كان يجري تصديرها إلى إثيوبيا ومناطق أخرى في القارة الأفريقية، وكان يجري التنافس بين مُنتِجيها من أجل تقديم خلطات جديدة.

الصدّيق التي حازت درجة الماجستير في الفنون الجميلة من «جامعة ييل» الأميركية عام 2019، تُعاين أيضاً التركيب الكيميائي للروائح التي تعرضها، في محاولةٍ لفهم فوائدها وأهمّيتها من منطلق علمي، ثم تذهب إلى تشكيلها جمالياً كما تفعل في فيديو يصوّر تِلالاً عائمة بشكل مخيف من اللبان وأنواع أُخرى من الراتنجات المعطرة.

أعمالٌ تمزج روائح الموت والعدم بروائح الحياة والخصوبة والاستمرار

«ما تبقّى هو الماء فقط»، 2019 (من المعرض)

صوت جديد

شرفُ الكاتب بزُهده في مغانم الجوائز والشهرة

محمد المتيّم

تقف هذه الزاوية من خلال أسئلة سريعة مع صوت جديد في الكتابة العربية، في محاولة لتبيّن ملامح وانشغالات الجيل العربي الجديد من الكتّاب

القاهرة ـ العربي الجديد

■ كيف تفهم الكتابة الجديدة؟

صدقاً، لا أعرف المقصود بهذا المصطلح، مَن الذي صكّه، وإلى ماذا يشير! هل هي كتابة جديدة بمعيار الزمن؟ نحن لا زلنا نستحضر كتابات المتنبّي والجاحظ وشكسبير. هل بطبيعة التعامل مع اللغة؟ هذا شيء بلا معيار، فـ«لكلّ شيخ طريقته»... صدقاً لا أفهم. وإذا كان لي تعريف الكتابة الجديدة كما أراها، فهي تعني تَزَحْزُح رؤيتي للأشياء والعالم سنتيمتراً واحداً للأمام، مع شروق شمس كلّ يوم جديد، وما يستتبعه هذا من كتابة تقفِز ولا تجترّ، كتابة صباحية تتجاوز ما كتبتُه ليلة أمس.

■ هل تشعر نفسك جزءاً من جيل أدبي له ملامحه وما هي هذه الملامح؟

لا أعتنق فكرة المجايلة، ولا أعوّل عليها في التحليل إلّا بنسبة بسيطة جداً. فعلى اعتبار الورقة مصبّاً، ثمة روافد متعدّدة ـ تتباين ـ تصُبُّ في النّص: البيئة، الجغرافيا، المصادر المعرفية، التجربة الشخصية؛ كلّ هذه الروافد تؤكّد التباين داخل الجيل الواحد. تبقّى فقط المعيار الزمني، فوجود مجموعة كتّاب في حقبة زمنية واحدة لا يخلق لديهم نسقاً موحّداً للكتابة لمجرّد كونهم يعاصرون نفس الأحداث العامة والتغيّرات الاجتماعية، ذلك أن التناول يختلف أيضاً باختلاف الروافد السابق ذكرها. نحن في زمن يقود للفردانية على كلّ مستوى، حيث الكاتب هو جيلُه.

■ كيف هي علاقتك مع الأجيال السابقة؟

لا أتنكّر لهم، ولا أنسحق أمامهم. دعني أستعين بالمقولة التراثية: «هم رجال ونحن رجال»، لهم تجاربهم ولنا كذلك تجاربنا، نشكرهم أنْ فتحوا لنا النوافذ على عوالم المعنى وفضاءات اللغة، ومع هذا نُحاور نتاجهم، نُسائله وننتخب منه، نرفع له القبّعة ولا نسمح لتقديره أن يجعلنا نتورّط فيه. فلكلّ كاتب، في كلّ زمن، نظّارته الخاصة.

■ كيف تصف علاقتك مع البيئة الثقافية في بلدك؟

مصر بلدٌ كبير، وعدد الذين يكتبون فيه ـ بصرف النظر عن القيمة ـ يوازي عدد الكتّاب في عشر دول مجتمعة ـ فليس هناك إطار جامع نحدّد به البيئة الثقافية، لكن هناك جماعات متعدّدة لكلّ منها خصائصها ورؤيتها للعملية الثقافية، ولكلّ منها نصيبها من عِلل السياق الثقافي. أنحازُ إلى الذين يستيقظون في السابعة صباحاً، وينزلون لأشغالهم اليومية، وفي آخر النهار يجلسون للقراءة والكتابة، بعيداً عن صخب المقاهي الثقافية ودكاكين الأدب. كثيراً ما يكون الانخراط في ما يُسمَّى «البيئة الثقافية» إهانةً للثقافة، وتهديداً لشرف الكاتب، شرفه الذي يتمثّل عندي بقيمة «الزهد» في مغانم الجوائز والمِنَح والتكريم والشهرة، فأخطر شيء على الكاتب أن يتحوّل لمتسوّل اهتمام، ولو من الجمهور نفسه!

■ كيف صدر كتابك الأول وكم كان عمرك؟

كنت في الثانية والعشرين تقريباً، وطُلِب منّي ديواني الأول للنشر في «دائرة الثقافة» بالشارقة. أصدقك القول، لم أكن راضياً عنه، لأنني كنت أرى فيه بشارةً بشاعرٍ سيجيء لا حقيقةَ وجود شاعر. ومع هذا، في تلك الأيام، كانت ألفُ ومئتا دولار مكافأةً مجزية وضرورية لشاب يتقاضى راتباً شهرياً مقداره 800 جنيه، والحمد لله ظهر الديوان والمكافأة معاً، واختفيا معاً خلال شهور.

■ أين تنشر؟

نشرت مجموعتي الشعرية «افتحي الباب يا فاطمة» حديثاً لدى دار «بتّانة». وأنشر مقالة رأي أسبوعية في زاويتي «مِن هناك» على موقع «منصّة الاستقلال الثقافية»، بالإضافة إلى مقالات وحوارات صحافية في مجلّة «الثقافة الجديدة» المصرية.

الشاعر هو الوحيد الذي قد يُفيد من عشوائية القراءة

النص الكامل على الموقع الالكتروني

محمد المتيّم

بطاقة

شاعر مصري من مواليد عام 1993 في محافظة الأقصر. صدرت له مجموعتان شعريّتان: «دمعةٌ تفكّ حصارين» (2016)، و«افتحي الباب يا فاطمة» (2022)، التي فازت مخطوطتها بـ«جائزة عفيفي مطر» هذا العام. يكتب مقالة أسبوعية على موقع «منصّة الاستقلال الثقافية».

فعاليات

تنطلق، عند التاسعة من مساء الجمعة المقبل، فعاليات الدورة الخامسة عشرة من **مهرجان جازابلانكا** في الدار البيضاء و تتواصل حتى الثالث من الشهر المقبل. من بين الموسيقيين المشاركين: **إبراهيم معلوف** (الصورة)، من لبنان، و**غيلبرتو غيل** من البرازيل، و**ناتاشا أطلس** من مصر، و**حميد القصري** من المغرب.

حتى 25 من أيلول/ سبتمبر المقبل، يتواصل في «موزاييك رومز» بلندن معرضٌ للفنان المصري **محمود خالد**، افتُتح الأربعاء الماضي بعنوان **تخيّلات حول هاتف عُثر عليه، مهداة إلى الرجل الذي فقده**. يضمّ المعرض سلسلة من التركيبات التي تستكشف العلاقة بين الإنسان والمعمار في الوقت الراهن، في ظلّ التوترات المتعلقة بالهوية والتواصل الاجتماعي والعلاقات العاطفية.

ينظّم «المتحف الفلسطيني» في بيرزيت، عند الثامنة من مساء غد الأحد، فعالية بعنوان **ليلاً في المتحف**، تتضمّن جولة في المكان ومَرافقه، وزيارة معرض «بلدٌ وحدُّهُ البحرُ: محطّات من تاريخ السَّاحل الفلسطيني ما بين 1748 - 1948» الذي يتواصل حتى الحادي والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر المقبل.

تُعرض، عند السابعة من مساء غدٍ الأحد، في «مركز الحرّية للإبداع» بالإسكندرية، مسرحية **الأفاعي**. العملُ من إعداد **عمرو أبو السعود**، وإخراج **محمود فيشر**، وهو مقتبس عن قصّة «بيت من لحم» ليوسف إدريس، والتي تناقش قضايا تمسّ المرأة من خلال قصّة أرملة تعيش مع بناتها الأربع منذ رحيل زوجها.